الفصل التاسع

لكل شيءٍ جوانبه الإيجابية أيضاً

لقد خسرتُ جميع أعدائي الشخصيين. توفّوا جميعاً. وأنا أفتقدهم كثيراً، فقد ساعدوني في معرفة نفسي.

كلير بوث لوس

يشترط الموقف الإيجابي من الحياة القدرة على رؤية المنافع في التجارب السيّئة أيضاً. لا نستطيع أن نستمتع بالجوانب الجميلة من الحياة إلاّ إذا عرفنا نقيضها. حسبك أن تفكّر في السعادة؛ فإذا لم تشعر بالتعاسة، لن تعرف أبداً روعة الشعور بأن تكون سعيداً. لا يمكنك أن تختار السرّاء، إذا لم تكن تعرف الضرّاء. تكرّر إحدى زميلاتي باستمرار: "لا تنزل المصائب بنا هكذا ببساطة، نحن نجتذبها، كي نتعلّم منها".

عندما كان عمري خمس سنوات، قاسيت كثيراً من آلام الأذن، واضطررت إلى ملازمة الفراش بانتظام. وبما أنني كنت فتاةً شقية نوعاً ما، فقد شعرت أن ملازمة الفراش جحيم على الأرض. كنت أعاني من آلامٍ شديدة، وأكره الاستلقاء في السرير، ولا زلت أذكر أن أعزّ أمنياتي كانت اللعب خارجاً. وذات يوم عرفتُ أن الأيام التي كنت أقضيها في السرير كان لها جوانبها الإيجابية أيضاً. فلو لم يجبرني المرض على ملازمة الفراش، لما عرفت أبداً نعمة الصحة. ويمكن نقل هذا الاستنتاج إلى ظروف الحياة كافة. أنت لا تعرف روعة الأيام المشمسة، إلاّ إذا عرفت الأيام الماطرة. على هذا النحو يمكن لكل ظرف أو وضع أن يكتسب جانباً نافعاً. لا بد أن تُصاب بالمرض أولاً، كي تتعلّم تقدير الصحة. ولا تمثل السعادة شيئاً خاصاً إلاّ إذا ذقنا طعم التعاسة. لا أفراح من غير أتراح. بعد أن تعلّمتُ هذه الدرس، وأنا في

الخامسة من عمري، افترضتُ أن جميع الناس يدركون هذه الحقيقة، ولكن لم يلبث أن تبيّن لي أن الحال ليس كذلك. بيد أن الموقف الإيجابي من الحياة له منافع عديدة:

- *بدلاً من الشكوى، باستطاعتك الاستفادة من الوضع على خير وجه.*
- *بإمكانك التخلّص من الأوضاع المزعجة، إن لم تقاوم الظروف. كل ما نكافحه يدوم.*
- *باستطاعتك إدراك مشاعرك وأحاسيسك وعيشها. عندما تكون حزيناً، تكون حزيناً فعلاً. وعندما تكون غاضباً، يكون غضبك حقيقياً. وعندما تكون سعيداً، يمكنك الاستمتاع بكل ذرةٍ من هذه السعادة.*
- *لا بد أن تكفّ عن إطلاق الأحكام على ما يحدث. الحياة هي ما هي عليه. وأيّاً كان الحدث، في وسعك أن تتعلّم منه شيئاً. الحياة تجربة رائعة. وفي عالمٍ خالٍ من المرض، لن يعرف أحد قيمة الصحة. ربما عليك أن تمرّ بتجارب سيّئة، كي تتعلّم تقدير الجوانب الحلوة من الحياة.*

المتفائلون ليسوا أكثر سعادة وحسب، بل أكثر نجاحاً أيضاً. فلتمنحِ التفاؤل فرصة! حاولْ أن تكتشف الجوانب الإيجابية أيضاً وراء كل الأمور المزعجة. ما عليك سوى أن تنظر إلى الأمر ببساطة على أنه تحدّ.

طالعتُ في ***وول ستريت*** مؤخّراً مقالةً مشوّقة تتناول كارثة فيضان نهر ميسوري عام 1993. كان عنوان المقالة: "نقطة التحوّل: كارثة فيضان أدّت إلى انتعاشٍ اقتصادي في ميسوري. رجال الأعمال في تشيسترفيلد استغلّوا الخراب فرصةً لتوسيع أعمالهم". فقد دمّر فيضان ميسوري المدينة كلياً. صحيح أن بعض السكّان حاولوا إنقاذ أشغالهم ومنشآتهم، إلاّ أن محاولاتهم باءت بالفشل. وكان من بينهم السيد هوفمان، الذي سعى جاهداً إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه من ممتلكاته، إلى أن أجبرتْه غزارة المياه على الهروب من نافذة في الطابق الثاني من منشأته. وقد تكبّد أصحاب الأعمال خسارة تُقدَّر بـ 33 مليون دولار، لم يتكفّل التأمين سوى بثلثها.

وإلى جانب تشيسترفيلد أُصيبت أجزاء أخرى من الغرب الأوسط أيضاً. وقد بلغت الأضرار والخسائر حداً اضطرّ ثلث أصحاب الأعمال القاطنين في هذه المنطقة إلى المغادرة. بعد ثلاث سنوات أعلن رجال الأعمال، الذين بدؤوا من جديد، أن حجم التعاملات قد ارتفع بسبب الفيضان تحديداً. "لقد كان الفيضان أفضل ما يمكن أن يحدث لنا"، هكذا أوضح السيد هوفمان، الذي ارتفع عدد عمّاله وموظّفيه في هذه الأثناء من 125 إلى 350 عاملاً.

حتى عندما تؤدي الكوارث الطبيعية إلى الكثير من الضحايا، فإن مثال تشيسترفيلد يبيّن ما يمكن أن يحصل عندما ينظر رجال الأعمال إلى حدثٍ كهذا على أنه تحدّ، لا نهاية مأساوية لأعمالهم. وقد أدت أعمال البناء عند بعض المقاولين إلى تماسكٍ أشد وتعاضدٍ أفضل بين العمال، بعد أن هجر العاملون الأقل التزاماً بالسفينة الغارقة. في حين أن السيطرة على الأزمة قادت إلى اكتساب ثقة جديدة بالنفس لدى رجال أعمال آخرين، مما حمل بدوره على التوسّع في الأعمال، أو كان مفعوله شديداً على العملاء إلى حدّ أن توكيلاتهم وطلبياتهم أخذت بالتزايد. وفي إطار أعمال البناء أعيد بناء بعض المنشآت القديمة. بينما أخذ مقاولون آخرون يستثمرون في إنشاءاتٍ حديثة، أو أقدموا أخيراً على الاستثمارات التي كانوا يرجئونها المرة تلو الأخرى. لا شك في أن هذا المثال يوضّح لنا أن الجوانب الإيجابية موجودة حتى في الكوارث الكبيرة. والأمر الحاسم هو الموقف الصحيح.